

الصورة الذهنية لآريل شارون كما عكستها بعض رسوم الكاريكاتير السياسى (الجزء الثانى)

د. شعبان عبد الصمد أحمد*

ملخص ما نشر:

تم فى الجزء السابق من البحث تناول الأبعاد التالية .. وظائف الفن النفسية والاجتماعية والسياسية، المصريون القدماء والفكاهة، فن الكاريكاتير وتأثيره النفسى والاجتماعى والسياسى، فن الكاريكاتير ودراسته الشخصية، مجال الدراسة "فن السخرية السياسية أو كاريكاتير الشخصية السياسية" وتعدد مداخلها وخصائصها، تطبيقات علم النفس فى مجال الفنون.

* قسم علم النفس كلية الآداب جامعة عين شمس.

The Image of Ariel Sharon as Reflected by Political Caricature (Part II)

Abstract

Part I has already dealt with the following points: the psychological, social and political function of art; humour in ancient Egypt; the psychological, social, and political effects of the art of caricature; the caricaturist's study of personality; scope of study (the art of political satire versus the caricature of political personages); and applications of psychology in the domain of art. Part II, naturally, begins where Part I leaves off.

* الهدف من البحث:

غالباً ما يكون فنان الكاريكاتير صاحب اتجاه اجتماعي وسياسي وأخلاقي، ودائماً يكون هذا الاتجاه لصالح جموع الشعوب ومدافعاً عن حقوقهم، وخاصة الشعوب المظلومة والمقهورة والمغلوبة على أمرها .. وهو صاحب قضية، وهي النضال والكفاح ضد السلطات الغاشمة والطاغية، ومهاجماً ظلمها واضطهادها واستغلالها ومفسدها، ومنندداً بفسادها وجرائمها، وغير مبال بما يمكن أن يحيق به من عذاب وقهر .. فالسخرية والفكاهة إذا خلت من المضمون الفكري والقيمي الجاد والموقف السياسي والاجتماعي، تحولت إلى فكاهة جوفاء أو فارغة أو سطحية كما قال الناقد عبد القادر القط ٢٠٠٢.

(٣٠)

فلا يستطيع الفنان إهمال طموحات الجماهير ومطالبهم وحقوقهم وتجسيد همومهم ومتاعبهم ومعاناتهم من الأحداث والمشكلات والأزمات الاجتماعية والسياسية الراهنة. بالإضافة إلى محاولة إضحاكهم والترفيه عنهم وإدخال البسمة على شفاههم.

والكاريكاتير كفن تعبيرى ساخر وهازل أو (كفن مشاغب ومزعج في الوصف الإعلامي الشعبي)، يعبر من خلاله رسام الكاريكاتير عن الشخصيات السياسية والعامّة (أى المعروفة) والتي تستأثر، باهتمامات الرأى العام، ويجسد دخائلها، أى يعبر عن أفكارها ومشاعرها وتناقضاتها وتطرف أفعالها وخبراتهم المأساوية ونقاط ضعفها وقصورها وعيوبها، يبلورها ويبرزها ويركز عليها ويبالغ فى تضخيمها وتصويرها، ويتعمق فى تحليلها وتفصيلها وإبراز أوجه الخلل والاضطراب .. ليس من الخارج (أى من الناحية الظاهرية) فقط بل من الداخل أيضاً قدر الإمكان. فينم بعضها بقصد التقريع والتشويه والتوبيخ، ويمتدح بعضها بقصد الذم.

لذلك فأحياناً يثير الكاريكاتير الاضطرابات والقلق .. فقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٢/١/٢٠٠٣ خبراً عن اندلاع مظاهرة فى قلب طهران احتجاجاً على نشر إحدى الصحف رسماً كاريكاتيراً ساخراً لرجل دين عابس الوجه وكثيف الحاجبين ويجلس على الأرض تحت إبهام يد ضخمة، ففسرت الجماهير المحتجة الرسم بشكل خاطئ على أنه يشير باحتقار ومهانة إلى مؤسس الجمهورية

الإسلامية آية الله الخميني، وفي اليوم التالي نشرت الأخبار أن الصحيفة أغلقت لامتناس غضب الرأي العام .. على الرغم أن مالكها هو أخو المرشد الأعلى للثورة الإسلامية آية الله على خامنئي.

وفي الآن نفسه يعبر الفنان في سخرياته عما يدور في ذهنه من تصورات وأفكار ومدرجات وآراء ورؤى اجتماعية وسياسية ووجهات نظر وبصيرة عميقة ونافذة، ومشاعر وانفعالات، حيث تجسد الشخصيات المرسومة انطباعاته الناقدة وتعليقاته اللاذعة .. ويعكس الفنان ما تحدثه تلك الشخصيات - إذا كانت واقعية وحقيقية - من أثر بالغ في نفوس الناس ومصائرهم، فرسوم الكاريكاتير عادة ما تكون محملة ومشبعة بالتأويلات والتفسيرات العقلية والانفعالات. Affect and thought Laden.

فما ينعكس من مشاعر وأفكار وقيم في الرسومات ليست محض أوهم شخصية أو خيال أو فانتازيا، بل بها كثير من الحقيقة والواقع، أو هي مزيج مبدع من الخيال والواقع .. المنطق واللامنطق .. الخرافة والعقل، فالشخصيات العامة والمعروفة (المرسومة) لها خصائص بارزة في الواقع وتتخذ قرارات وتقوم بأنشطة وممارسات يكون لها صدى وتأثيرات إيجابية وسلبية في نفوس الجماهير، وكذلك تتفعل الجماهير بنتائجها وقراراتها وأفعالها وسلوكياتها السياسية والاجتماعية.

لذلك هدفنا من خلال هذا البحث إلى التعرف على ملامح ومعالـم Delineation الصورة الذهنية لرئيس الوزراء الإسرائيلي أريـل شارون كما عكستها ورسمتها وعينتها depicted بعض الرسومات الهزلية لرسمـى الكاريكاتير "المحترفين والهواة" والمرتبطة قطعـا بالأحداث السياسية الدرامية التي تمر بها المنطقة العربية والصراع العربي الإسرائيلي في أكثر حلقاته مأساوية catastrophic وقتامة، وقد نُشرت تلك الرسومات في الفترة ما بين عام ٢٠٠١، وعام ٢٠٠٢، ونشرت في صحيفتي الأخبار والأهرام باعتبارهما أكثر الصحف المصرية شيوعا .. هذا بالإضافة إلى محاولة معرفة ما إذا كانت تلك الملامح ومكونات الصورة الذهنية تتواكب مع ما يقوم به شارون من أعمال وأفعال إجرامية لا تعرف الرحمة والشفقة في حق الشعب الفلسطيني ..

* أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث بصفة أساسية في محاولة تحقيق الهدف من البحث، وتتحقق أيضا من خلال اختيار موضوع البحث .. وهو التعرف على ملامح ومكونات الصورة الذهنية من تصورات ومدرجات ومعتقدات وأفكار وانطباعات ومشاعر بعض رسامى الكاريكاتير، وذلك فيما يتعلق بشخصية سياسية حازت على أكبر قدر من سخط العرب وغضبهم وسخريتهم اللاذعة وتنكيتهم العابث وتهكمهم الحاد، وقد أجمعوا على هجائه والهجوم عليه، مع محاولة استنتاج ما إذا كانت تلك الصورة الذهنية المنطبعة في أذهان العرب تتسجم وتتلاءم مع أشد الأعمال إجرامية ووحشية في تاريخ أنظمة الحكم العنصرية، وبمعنى آخر نريد أن نعرف .. هل لاقت قرارات وأعمال وتصرفات شارون البربرية والهجمية في حق الفلسطينيين ما يناسبها من تصورات وأوصاف ومدرجات وانطباعات ذهنية (من بعض رسامى الكاريكاتير)؟.

وتزداد قيمة وأهمية الدراسة في ذلك المجال البحثي على وجه الخصوص، إذا كان ذلك الإدراك والتصور الذهني والفهم متعلقاً بالشخصيات العامة على رأسها الشخصيات السياسية المسئولة عن مصير المجتمعات وتسييرها، وأيضا تزداد أهمية تلك التصورات الذهنية إذا كانت لفئة من المثقفين أو النخبة المثقفة (الأنتلجنسيا) ولهم أدوارهم البارزة في المجتمع، ومواقف واتجاهات اجتماعية وسياسية ناقدة ومؤثرة وضاعطة على مؤسسات صنع القرار، ولهم رؤى تجديدية وإصلاحية ومواقف ثورية في المجتمع، وهى فئة رسامى الكاريكاتير، باعتبار أن الكاريكاتير فن ساخر ناقد وهزلى، يسخر ويضحك من الأخطاء والسلبيات والمشكلات وأوجه القصور الشخصى والاجتماعى والسياسى فى المجتمع.

- لماذا شخصية رئيس الوزراء الإسرائيلى أرييل شارون؟

يتبادر للذهن منذ الوهلة الأولى سؤال محتواه .. لماذا شخصية شارون على وجه الخصوص؟ .. وفى الإجابة على هذا السؤال ما يجسد أهمية البحث بصورة أوضح.

أولاً: ارتباط هذه الشخصية بالصراع العربى الإسرائيلى، حيث تمثل قضية فلسطين بالنسبة للعرب قضية العرب الأولى..

ثانياً: تسبب شارون في اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ واستمرارها، ولا يزال هو موقدها وهو العامل الأول لتأجيج حدة الصراع العربي الإسرائيلي، وما ألحق بالفلسطينيين من دمار وخراب، وما ارتكب في حقهم من كافة أنواع الجرائم ضد الإنسانية والتي تتضاءل أمامها جرائم النازية والفاشية، ولا يزال شارون هو العقبة الكنود أمام تحقيق السلام والأمن في الشرق الأوسط.

ثالثاً: من الناحية الفنية .. يعتبر شارون بخصاله وصفاته الشخصية والجسمانية وأفعاله ونشاطاته وقراراته مادة للتندر والاستهزاء والتكيت والنقد اللاذع والتبكيت والتصوير الكاريكاتيري الساخر عموماً، فرسامو الكاريكاتير لا يقتصرون شخصية واقعية ما بهذا الكم الهائل والمتنوع من الرسومات الهزلية إلا وكانت تتوفر في تلك الشخصية أبعاد وطباع وملامح تجذب وتلفت النظر وبهذا الاتفاق والإجماع، تبرز ظهور هذا الكم المتعدد من الرسوم الفكاهية والضحكة، والتي تتال من خصائصها وأفعالها ومعالمها، ومبرزة مساوئها وسلبياتها ونقاط ضعفها، وما بها من شذوذ وتطرف وعنف، فأى خروج عن الطبيعي والمألوف يجلب الضحك ويمثل دافعاً للسخرية والهزل.

رابعاً: شخصية شارون شخصية سهلة وطبعة للتعبير عنها كاريكاتيرياً حتى للرسامين الهواة والبسطاء وليس المحترفين، لما تتميز به تلك الشخصية من تطرف وجموح وحدة ومبالغة وتناقض، وخلوها من القيم الإنسانية .. مما يمكن الرسامين في يسر من التعبير عنها تعبيراً ساخراً وناقداً، لأنها تملك بحق مواصفات ومعايب تستحق الإزدراء والاستهزاء والاستخفاف والتقريع والذم عن طريق الكاريكاتير، فالكاريكاتير يحلل الشخصية ويتعمق في الوصف الفكاهي لمدخلها، ويتناول الخصائص غير المرئية والمجهولة، ويبالغ في تصويرها بسخرية وتهكم وبأسلوب ضاحك.

وشارون نفسه له بعض المطالب الفكاهية، مثل طلبه من العرب في مؤتمر القمة العربي بلبنان مارس ٢٠٠٢ أن يدعونه لحضور المؤتمر ليناقد فيه المبادرة العربية للسلام، فشخصية شارون لا تحتاج لتلك المبالغات الكاريكاتيرية لأن صفاتها في الواقع منطرفة، أى مبالغ فيها أصلاً. ولا تحتاج إلى قدر كبير من خيال

الرسم ليضيف أفكاراً وأحكاماً وانطباعات وانفعالات من عنده ليسقطها على الشخصية المرسومة.

ولهذا السبب تم اختيار رسومات رسامين هواه بجانب المحترفين .. وذلك لإضفاء نوع من التنوع والتعدد في ملامح وجوانب الصورة الذهنية المنعكسة لشارون..

وجدير بالذكر أن بعض ملامح صورة شارون ليست من صنع خيال وأفكار وتصورات العرب وحدهم، بل هي شائعة لدى البعض في الغرب ممن يتسمون بالصدق والحياد والموضوعية، ففي عام ١٩٩٧ وعندما كان شارون وزيراً للبنى التحتية في حكومة نيتانياهو، وصفته صحيفة "صنداى تايمز" البريطانية بأنه "بلدوزر إسرائيلي"، وقد وصفته بعض الأوساط الغربية في أعقاب إدانته بالمسئولية عن ارتكاب مجزرة صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ بأنه سفاح صبرا وشاتيلا .. وقد يستنتج من هذا أن شارون بريشة رسامى الكاريكاتير هو شارون فى الحقيقة دون تغيير أو رتوش. ولكن ما يمثل قصورا فى تناول الشخصية هو تسليط الضوء وإبراز خصائص وأوصاف لشارون ليس لها علاقة مباشرة بالصراع العربى الإسرائيلى، ولا يعد شارون مسئولاً عنها، مثل تصويره على أنه بلدوزر لأنه بدين، أو له وجه قبيح، فهذه الأوصاف والنعوت تظهرنا بمظهر التحيز والتعصب، وهذا لا يخدم قضيتنا، ونحن فى الأساس أصحاب حقوق مهذرة ومسلوبة.

* تحديد مصطلح الصورة الذهنية Image:

فيما مضى كثيراً ما كان يثار جدل واسع عن الفروق بين مصطلحي الصور الذهنية Images ومصطلح المفهوم أو التصور أو المعنى الكلى concept، وغيرها من المصطلحات القريبة منها مثل الهالوس والوهم أو الخداع Illusion والأنماط الجامدة stereotypes، وخاصة أنها مصطلحات متعددة المعانى والاستخدامات.

والبعض لا يميز ولا يضع فروقا وحدودا بين المصطلحين الأولين، ويعتبرهما مترادفين أو بمعنى واحد، وهذا ناتج عن دراستهما فى إطار الحواس المختلفة وقياس الإدراك للمثيرات المختلفة.

والبعض الآخر يرى أنه توجد فروق لها دلالتها بين معانى المصطلحين .. كأن يقصر مصطلح التصور أو المفهوم concept على ما هو عقلى وشعورى لأنه نتاج عمليات عقلية صرفة، بينما مصطلح الصورة الذهنية ينصرف إلى ما هو شعورى ولا شعورى، ويتضمن ما هو عقلى وانفعالى، وما هو واقعى مدرك وخيالى. وفى الآن معاً.

وهذا الجدل والنقاش متعلق بجدل قديم وسابق، وهو الجدل المرتبط بالإجابة على سؤال أنفق فيه علماء النفس وقتاً كثيراً .. وهو .. هل عمليات التفكير والتي تتسم بالعقلانية والمنطق والرشد تتضمن وجود صور ذهنية (شعورية ولا شعورية) Images؟ أم لا .. وكانت الحلول التوفيقية أن عملية التفكير لا تخلو مطلقاً من وجود تلك الصور الذهنية المتخيلة والمختلفة والأوهام، ووصفت الصور الذهنية بأنها خبرة ذهنية أو صورة فى العقل Picture in the mind أو صورة ورؤية عن طريق العقل. ومعنى هذا أن المصطلح يتضمن مزيجاً من التفكير الشعورى الواعى والتخيل والإيهام والخلق، أى رؤية عوالم غير منظورة فى الواقع، وهذا يعنى أن الصورة الذهنية تتضمن عناصر ذاتية وخاصة، وعناصر أخرى موضوعية وواقعية، ومادام بها عناصر ذاتية من الخبرة الشخصية والإدراك، إذن فالصور الذهنية نسبية أى متغيرة وغير ثابتة وغير يقينية.

(٥٨)

ومصطلح الصورة الذهنية ظهر لدى عالم النفس والفيلسوف الألماني فونت كأحد العناصر الثلاثة والتي تكوّن الوعى أو الشعور، بالإضافة إلى الإحساس sensation والانفعال emotion ومع بداية القرن العشرين وخاصة بعد الظهور البارز لنظرية التحليل النفسى ونمو وتطور تيار القياس النفسى، وابتكار مقاييس واختبارات الذكاء ودراسة مكوناته من الناحية النظرية والعملية، برز إلى السطح مصطلحات مثل "التصورات concepts والصور الذهنية images والخيال Imagination، وأخذت تتداول وتنتشر فى المناقشات والأبحاث والمؤلفات.

هذا وتعتبر المدرسة السلوكية الدراسات التى تتناول التخيلات Fantasies والصور الذهنية أنها تقع خارج نطاق واهتمام علم النفس، بسبب طابعها الذاتى والشخصى، بينما ينبغى أن يدرس علم النفس فى نظرهم كل ما هو قابل للملاحظة

والقياس والتمحيص، لذلك فهي تعتبر مصطلحات كالصور الذهنية مثل الأشباح في مجال علم النفس، ولكن في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عندما استأثر علم النفس المعرفي بالاهتمام في الدراسات النفسية، عاد موضوع الصور الذهنية إلى احتلال مكانته في الدراسات النفسية والاجتماعية.

* التعريف المقترح:

والصورة الذهنية هي خبرة نفسية (شعورية ولا شعورية) تعد محصلة أو خلاصة للمدركات والانطباعات والأفكار والمفاهيم ووجهات النظر والتفسيرات والمعاني والمشاعر والرغبات والمقاصد، والتي يعبر بها عن نفسه وعن الآخرين، وعن الموضوعات والأحداث والمواقف.

ويرى مختار حمزة ١٩٥٤ أن الصورة الذهنية ديناميكية ومتجددة، تتلون وتتغير متأثرة بعوامل كثيرة مثل التعليم والمهنة والثقافة والنمو النفسي والخبرات النفسية والذكريات الماضية، خاصة الصادمة والمؤلمة والانفعالات المضطربة .. والصورة الذهنية قد نكونها نحن عن أنفسنا أو شخصياتنا، وقد يكونها الآخرون عنا، وذلك من خلال تفاعلاتهم وأفكارهم وانطباعاتهم وملاحظاتهم وتأملاتهم، والمعاني التي يصفونها على المثيرات والوقائع.

(٥٠: ١٢٢-١٢٣)

والصورة الذهنية هي إدراك وتصور ومعرفة وفهم وتمثيلات عقلية مستمدة مباشرة من الإدراك للواقع، أي أن الفرد يدرك المثير كما هو في الواقع ولا يخطئه، ولكنه يضيف إلى الصورة المدركة عناصر من الخبرة النفسية الداخلية، أو الواقع النفسي الداخلي. ذي الطابع اللاشعوري والمتخيل كما قال فرويد. أي أن بها رؤية vision وإدراك وتصور ومعنى مشتق من الواقع، بالإضافة إلى مشاعر وتخيلات مسرفة وتفسيرات شخصية من صنع الخيال وأثار الذكريات وهي يمكن أن تكون انطباعات خرافية Erroneous Impressionism وتحريفات وادعاءات، ومزاعم claim وافتراسات ذاتية مبالغ فيها وأهواء Whims، وأمزجه مؤقتة Moods وتحيزات Prejudices، ومعلومات خاطئة ومغلوطة Misinformations، ومعتقدات خاطئة False Beliefs، وأحكام قاصرة Misjudgments، وليس لها ما يقابلها في الواقع، مما قد يجعلها تتناقض مع الواقع وتتصادم معه.

(٥١)

ويسبب هذا الطابع الذاتى والشخصى للصور الذهنية توصف عادة بأنها انفعالية وباهتة faint (بمعنى إنها ليست إدراكاً صافياً) ووقتيه temporary وسريعة التغير fleeting ومتحيزة .. لكن فى الآن نفسه، الصور الذهنية ليست هلوسة، لأن الهلوسة هى إدراك ما ليس موجوداً فى الواقع، وهى ليست خداعاً أو وهماً illusion، لأن الوهم هو إدراك وتفسير خاطئ Misinterpretation misperceiving لمثيرات موجودة فعلاً، بينما الصور الذهنية هى إدراك مباشر للواقع، ولكن مضاف إلى الصور المدركة عناصر من الخبرة النفسية، وهى عناصر مبتكرة ومختلفة ومتخيلة.

(٦٠: ١٠٥)

فمما يشوه العلاقة السليمة بين الوقائع المدركة وعملية الإدراك، ويجعل تلك العلاقة متميزة ومغرضة، هو وجود تأثير العديد من المؤثرات الشخصية فى الأساس مثل سمات الشخصية والدوافع والحاجات والطموحات والتوقعات والاتجاهات والقيم، والانفعالات والخبرات النفسية اللاشعورية، وهذا بالإضافة إلى قائمة طويلة من المؤثرات الاجتماعية والسياسية التى تلعب دوراً مؤثراً فى تشويه الإدراك والصور الذهنية.

(٦٣: ٧١)

بينما مصطلح التصور أو المفهوم أو المعنى الكلى concept هو عبارة عن معانٍ ودلالات ومعرفة وأفكار عامة مستمدة من الواقع ومن الإدراك الحسى المباشر، ولكن بعد تدخل ونشاط العمليات العقلية المختلفة، أى أن التصورات نتاج للاتصال المباشر بالواقع، ونتاج لعمليات التفكير مثل التأمل والتقييم والتمييز والتعميم والتجريد والتصنيف .. لذلك لا تتضمن التصورات والمفاهيم إلا ما هو شعورى وواقعى، وعقلى أو معرفى ومنطقى ومجرد وكلى وعام، ولا يتضمن مصطلح التصورات ما هو لا شعورى ومتخيل (أى مزعوم ومختلف) وما هو انفعالى .. فهذا مقصور فقط على مضمون مصطلح صور ذهنية

(٥٩: ٥٤)، (٦١)

ويلوح في الأفق فارق آخر بين مفهوم التصورات ومفهوم الصورة الذهنية، وهو حساسية الصور الذهنية، أى قابليتها للتأثر بالأحداث الجارية والمواقف والمؤثرات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، فالصور الذهنية ليست تمثيلات عقلية منطقية وتجريدية محايدة، بل هى مدركات وتأويلات وصور وانطباعات ومعانٍ تشتق مباشرة من البناء الاجتماعى والثقافى والسياسى القائم، وما يسود فيه من خبرات وعناصر ثقافية متراكمة .. مثل المعتقدات والأيديولوجيات والأحكام القيمية والأعراف والمبادئ، ومكونات التراث الشعبى الموروثة عن الأجداد.

وربما يثار هنا فى هذا المقام نقد محتواه .. أن لكل فرد صورة ذهنية خاصة به، والتي تختلف فى تفاصيلها عن أقرانه، إذا فما جدوى دراسة الصورة الذهنية لدى أى جمع أو جماعة من الناس، ومن الطبيعى والمنطقى أنهم يختلفون عن بعضهم البعض فى مضامين ومكونات أى صورة ذهنية..

وعلى الرغم من وجاهة ذلك التساؤل الناقد .. إلا أن هناك عناصر متعارف عليها وشائعة، أو مكونات عامة ومشاركة فى الصورة الذهنية لدى جماعة ما وفيما يتعلق بالمشيراث النفسى، وخاصة إذا كانت تلك المشيراث لها دلالات اجتماعية وثقافية وسياسية عامة وقومية، مثل الصورة الذهنية لأى زعيم سياسى إسرائيلى تتكون لدى الإنسان العربى.

وقد يتصور البعض أن وجود مكون التخيلات أو الأخيلى phantasies فى الصور الذهنية قد جعلها ذات طابع سلبى، لأنها قد تجعل مصطلح الصور الذهنية ذات طابع ذاتى أو شخصى وسريع التغير ومتناقض وغير منطقى، مما يحرف الإدراك ويشوه انطباعاتنا وأفكارنا عن الأشياء والموضوعات والأحداث، وهذا صحيح .. لأن التخيلات كما هو معروف فى علم النفس أنها خبرات أو نشاط نفسى لا شعورى، وقائم على تحقيق الغرائز والرغبات والطموحات والميول على مستوى الخيال، وكثيرا ما يتم إدماجها فى الخبرات والمعانى والتفسيرات التى تشكل المضامين النفسية للواقع، وهى بحكمها منطق الانفعالات واللاشعور ومبدأ اللذة، أو العمليات الأولية كما يقول المحللون النفسيون، ولا تنقيد بحدود العقل والمنطق الواقع.

ورب ضارة نافعة، حيث لا تخل التخيلات من القيمة والإيجابية كما يقول مصطفى زيور ١٩٧٥، وهي مساعدة الفرد على مواجهة واقع مؤلم ومحبط وقاس ولا قبل للفرد به، ولا يمكنه من تحقيق الرغبات والأمال والطموحات والتطلعات، كما أن التخيلات تسمح بتفريغ الشحنات الانفعالية كالتوتر والقلق والغضب والشعور بالخوف والسخط و النقمة واليأس.

(٥٤)

وجدير بالإشارة أن مصطلح صورة ذهنية image يختلف عن المصطلح الشبيه به وهو المصطلح الذي صكه عالم النفس التحليلي كارل يونج وهو صورة متخيلة Imago لأن مصطلح صورة ذهنية في أغلب مضمونه شعوري وواعي وقريب من الواقع، وقد يضاف إليه بعض المضامين أو العناصر اللاشعورية المتخيلة، ولكن مصطلح صورة متخيلة كما ترجمه حسين عبد القادر ١٩٩٣ هو مصطلح يعبر عن مضامين من الخبرة النفسية ذات الطبيعة اللاشعورية في معظمه، وهي صورة أثرية أو أولية يحملها الفرد من ماضيه النفسي والاجتماعي، وهي توجه إدراكاته وأنماط سلوكه الحالي .. ومكونات الصورة المتخيلة تلعب فيها التخيلات اللاشعورية الدور الأكبر في تكوينها، وليس الواقع المعيش والمدرّك.

(١٨)

وأيضاً يختلف مصطلح صورة ذهنية عن مصطلح صورة، لأن مصطلح صورة يشير كما يرى فرج طه ١٩٩٣ إلى تلك الصورة الرمزية والمجردة والبديلة لصورة شخصية حقيقية، كان يرى شخص ما على المستوى النفسي (وربما لا شعورياً) صورة المدرس أو الرئيس كصورة بديلة لصورة الأب الحقيقية، وصورة المدرسة أو المدير كبديل رمزي لصورة الأم الواقعية.

(٣٦)

* الدراسات السابقة:

ونظراً لأن موضوع الدراسة الحالية حديث نسبياً وغير مطروق أى (دراسة الشخصية عن طريق رسوم الكاريكاتير، أو كاريكاتير الشخصية) لذلك ففي حدود

علمنا لم نثر في التراث على دراسة سابقة في هذا المجال وتعامل مع الصور المدركة للشخصيات العامة والسياسية عبر رسوم الكاريكاتير.

وربما كان ذلك بسبب أنه لم تتوفر فيما سبق لشخصية عامة هذا الكم الكبير والمتنوع من رسوم الكاريكاتير، وبما يكفي لدراسة تلك الشخصية وتحليلها والتعرف على طبيعة الصورة الذهنية المنطبعة عنها في أذهان بعض قطاعات الرأي العام، والتي تعكسها رسوم الكاريكاتير المنشورة في الصحف السيارة.

فعلى الرغم من أهمية عملية الإدراك وتأثيره الهادف في مختلف العمليات العقلية الأخرى مثل التفكير المجرد وحل المشكلات والفهم والتذكر والاستبصار والذكاء الاجتماعي، وأهميته للعمليات والوظائف النفسية والاجتماعية الأخرى مثل تشكيل المعايير والاتجاهات والتوافق ومواجهة الضغوط والصراعات والروح المعنوية، وتأثيره الفعال في السلوك وتوجيهه النشاط للممارسات والعلاقات والتفاعلات الاجتماعية المختلفة، إلا أن الأبحاث بصفة عامة في مجال سيكولوجية الإدراك الاجتماعي والسياسي لازالت قليلة.

وفى اعتقادنا أن السبب الرئيسي في قلة هذه الدراسات هو .. ميل العديد من الباحثين إلى الاعتقاد والافتتاح بأن كثرة البحث في ذلك المجال غير مثمرة كثيراً، لأن مضمون عملية الإدراك يغلب عليه الطابع المتحيز والمتحامل والذاتية والتعصب والتناقض في التفسير والرؤى، فهو عرضة للتغير المستمر وعدم الثبات ويخضع للتشويه distortion والتزييف والمبالغة وسوء التفسير، وذلك بسبب عوامل كثيرة ومتنوعة، فتحمل عملية الإدراك بذلك قليلاً من الموضوعية واليقين والصدق، وكثيراً من الذاتية والانتهازية والمراوغة والشك، والتلون coloring، أى تفسيره وتأويله (بالوان الطيف الاجتماعي والسياسي).

* تساؤلات البحث:

فيما سبق ألقينا الضوء على طبيعة تساؤلات البحث عندما عرضنا لهدف البحث وأهميته .. فهذا العدد الهائل من رسوم الكاريكاتير المنشورة*، هو الذى

* يبدو أن الشخصيات الاسرائيلية القيادية كشخصية رئيس الوزراء مثل بن جوريون وجولداماير وموشى ديان وبيجن وشامير، كانت دائماً موضعاً لاهتمام رسامي الكاريكاتير، ففي فحص لمجموعة رسومات أحمد طوغان (٢٠٢ رسماً) عن الفترة من أغسطس ١٩٩٨ إلى مايو ٢٠٠٢، ظهرت شخصية رئيس الوزراء السابق نيتانياهوف في ٣٣ رسماً.

حدد تساؤلات البحث .. وهى تتمثل فى:

أولاً .. ما هى ملامح وجوانب الصورة الذهنية لشخصية رئيس الوزراء الإسرائيلى أرييل شارون كما عكستها بعض رسوم الكاريكاتير؟

ثانياً .. هل هذه الصورة كانت مواكبة ومنسجمة مع جسامه وخطورة وأهمية الأحداث السياسية ونتائجها أم لا؟.

* الجوانب المنهجية للدراسة:

كانت الفنون ومنها الرسم بأنواعه كما يقول مؤرخو الفن وفلاسفة الجمال بمثابة أساليب أو طرق تعبيرية، وتطهير أو تنفيس عما هو دفين فى أعماق نفس الإنسان، وقد أسدى تحليل الإنتاج الفنى والأدبى خدمات جليلة لعلم النفس وأثرى البحث النفسى، لأن الرسم اتخذ مع تطور المناهج وأساليب البحث فى علم النفس كطريقة غير مباشرة لدراسة جوانب أساسية فى الشخصية.

وازداد الاهتمام بتحليل الإنتاج الأدبى والفنى بعد أن نظرت مدرسة التحليل النفسى للفن والرسم بوصفه إسقاطاً للشخصية، وركزت على ما للرسوم الفنية من طبيعة إسقاطية تقودنا لاستنها وتحليلها إلى دراسة أعماق النفس "اللاشعور"، وما يختزن فيه من خبرات نفسية دينامية ... وذلك على نحو ما فعلت فلورنس جود أنف، وكارن ماكوفر، وجون ن. باك، وغيرهم كثيرون من المتخصصين فى مجال علم النفس الاجتماعى والدراسات الحضارية المقارنة أو علم النفس عبر الحضارى، حيث تعتمد دراساتهم على اختبارات متحررة نسبياً من أثر العوامل والمؤثرات الحضارية، وأهم هذه الاختبارات اختبارات الرسم الإسقاطية.

(٣٩: ٢٣٠-٢٣٢، ٣٦١-٣٦٣، ٥٠٠-٥٠١)

مادة التحليل الإحصائى وخصائصها (الأدوات).

السبب الرئيسى لاعتمادنا فى دراستنا على رسومات الكاريكاتير كأداة لتحقيق أهداف وتساؤلات البحث هو:

أولاً : وجود وفرة من رسومات الكاريكاتير (كثيرة ومتنوعة) ومتعلقة بمشكلة البحث.

ثانياً: أن فن الكاريكاتير يمكن وصفه باختصار من ناحية المضمون والوظيفة وليس الشكل على أنه فن التعبير عن المفاهيم والتصورات والمدرجات والمعاني والرؤى ووجهات النظر والتفسيرات ذات الصلة الوثيقة بالقضايا والمشكلات الحيوية، وغالباً ما يكون ذلك التعبير ساخراً وفكهاً، ويخاطب ملايين البشر ممن يشكلون الرأي العام، وبصورة مبسطة وسهلة ومفهومة، ويؤثر بالإيجاب عليهم نفسياً أو عقلياً، وعلى سلوكهم واتجاهاتهم وميولهم المختلفة، وكثيراً ما يحثهم ويحرضهم على اتخاذ المواقف الناقدة والثورية، واللجوء إلى الأفعال والممارسات التي تصحح الأوضاع الخاطئة والأحوال المرذولة والقاصرة والسلبية، وهذا مبعث خطورته وأهميته وتأثيره السحري بالنسبة للعامة، وللأساسة وأولى الأمر وأنظمة الحكم، وخاصة الظالمة والدكتاتورية منها، من ثم دائماً ما يكون الكثير من رسامي الكاريكاتير مبعث قلق واضطراب، وشغب وتمرد وتهيج الجماهير سياسياً .. مما يعرضهم لكافة أشكال النقمة والتنكيل على سبيل الانتقام والردع.

فمن مؤشرات جودة ونجاح الرسوم الكاريكاتيرية والابتكار فيها هي أنها تتجاوب مع اهتمامات الرأي العام، وتلتقي مع همومه وتتسجم مع اهتماماته، وتتناول المشكلات والأحداث الجارية والمتغيرة، أو موضوع الساعة كما يقال .. وإلا ما عدت رسوماً جيدة.

من ثم فهي تعد مؤشراً ودليلاً على اهتمامات الرأي العام، بحيث يمكن اعتبار الرسومات مجسدة لقطاعات كبيرة للرأي العام، وتمثل ضمير وصوت الجماهير .. مثلما صورت رسوم الكاريكاتير في العهد الملكي بمصر رئيس الوزراء على أنه رئيس جوقة أو فرقة في السيرك أو تحت شرقى.

وقد تكون لتلك الوظيفة أو التأثير طبيعة دعائية، أو تصب في إطار "البروباجندا"، أو الحرب النفسية المليئة بالمبالغات والأكاذيب والهجوم والهجاء، ولكنها على أية حال وظيفة لها نفعها وفائدتها وثقلها للمجتمع، وخاصة في حالة الصراعات السياسية والاجتماعية والحضارية، وفي نطاق العلاقات الدولية والتغيرات الاجتماعية والثقافية، والثورات السياسية.

ثالثاً: من المعروف أن الكاريكاتير فن لا يتقيد حرفياً بالواقع وقيوده، بمعنى آخر أن الرسم الهزلى الساخر ليس مجرد نقل حرفى للواقع، نظراً لأنه تناول فنى ناقد ولاذع ومبالغ فيه لأخطاء وقصور وسلبيات موجودة فى الواقع، أى أنه مرتبط بتصورات ومعان وتفسيرات مثالية أو قيمية، وتسعى لتصحيح تلك السلبيات، وإرشاد الناس وتوجيههم نحو العلاج والحلول الفعالة.

وإن لم تستطع تلك الرسوم تقديم الحلول واقتراح العلاج، فهى تسعى لتسليط الأضواء على تلك السلبيات والأخطاء، وتنبية الناس بخطورتها وإيقاظ وعيهم وتبصيرهم بجسامتها.

وفى هذا المقام قد يحتج البعض على الكاريكاتير بأنه يشوه ويحرف الواقع، لأنه يضخم من حجم الأخطاء والعيوب، ويبالغ فيها ويهول من قدرها، مما يزيد تشوهاً وتحريفاً عن ما هى موجودة عليه فى الواقع، وهذا الاحتجاج مردود عليه ... لأن المبالغة والتضخيم بمثابة حيلة أو وسيلة فنية، كالمجهر الذى يكبر عيوبنا وأخطاءنا كى نراها بوضوح ونتنبه إليها ولا نغفل عنها، ونستبصر بها ونعيها، حتى يكون ذلك الوعى والفهم هو بداية الطريق الصحيح للحلول المؤثرة للقضايا والمشكلات الحيوية والمصيرية المؤثرة فى مستقبل الأوطان.

وقد اعتمدنا فى بحثنا الحالى على عينة من الرسوم الكاريكاتيرية المنشورة فى صحيفتى الأهرام والأخبار، باعتبارهما أكثر الصحف انتشاراً بمصر، وتحرصان على ظهور أكثر من صورة كاريكاتيرية فى العدد الواحد، مما ييسر الحصول على وفرة من الصور الكاريكاتيرية، وقد ضمنا العينة أيضاً صوراً لرسامين هواة من الجمهور العادى وتنتشر فى ملحق جريدة الأهرام يوم الجمعة من كل أسبوع، لتعطى لنا فرصة أكبر للوصول إلى استكمال الجوانب المتعددة لصورة شارون الذهنية الحقيقية والمتخيلة عنها للرأى العام العربى، حيث يتضمن مصطلح الصورة Image، الصفات الحقيقية أو الواقعية Factual والخصائص والصفات المتخيلة أو المتوهمة Fancied سواء بطريقة مقصودة أو غير مقصودة.

(١٦: ٥٢٤)

ومما أعطانا المبرر للاعتماد على رسوم رسامين هواة، أننا فى الأساس كما فى الاختبارات النفسية التى تستخدم الرسم كأداة، لا نقيس المهارة الفنية فى الرسم أو التدريب الفنى، ولكن نقيس كيفية ومضمون التعبير الفنى، ولا تعيننا المهارة أو الموهبة فى الرسم، فما يعيننا هو مضمون التعبير فى المقام الأول وليس شكل أو أسلوب التعبير.

وامتد المدى الزمنى للرسوم الكاريكاتيرية منذ اضطلاع شارون بالحكم فى فبراير ٢٠٠١ إلى آخر نوفمبر ٢٠٠٢، أى إلى فترة استقالة حزب العمل من حكومة شارون الائتلافية ودعوة شارون لانتخابات مبكرة.

وكان معيار اختيار الصورة الكاريكاتيرية الهزلية لمادة التحليل أن تظهر فيها صراحة شخصية شارون بملامحها المعروفة الواضحة والمشهورة للرأى العام، وقد بلغ عدد الصور ١٣٠ رسماً لرسامين محترفين وهواة .. وكان من الرسامين المحترفين على سبيل المثال مصطفى حسين وجمعة وعمرو فهمى ونبيل تاج وماهر داوود وفرج حسن وسعد الدين وأبو العز وأنس الديب

وأغلب الرسومات (للهواة والمحترفين) كان بها تعليقات ساخرة توضح الصورة والمعنى العام المقصود منها، وأحياناً تضيف التعليقات المكتوبة للرسم معنى إضافياً غير موضح بالرسم، فكنا نسجله أيضاً ... والقليل النادر من الرسومات كان بلا تعليق، حيث يتميز أسلوب بعض الرسامين بالاكتماء بالرسم وعدم اللجوء إلى ذكر أى تعليقات لفظية، ويعتبرون أن الرسم من الوضوح والتحديد وبلوغ الهدف من الرسم مما لا يحتاج معه إلى تعليق، ولدرجة أنهم يعنونون رسوماتهم بعبارة "بدون تعليق"، فبعض الرسوم تسير على طريقة الرسوم الغربية لرسامى الكاريكاتير فى الغرب، حيث تهتم أولاً وأخيراً بالرسم والشكل أكثر من الاهتمام بالكلام الفكاهة والنكت الطريفة والتعليقات الساخرة.

لذلك كانت بعض الصور والرسومات متعددة المعانى والأفكار والتصورات والمفاهيم ولكنها قليلة العدد، والأغلب الأعم من الرسومات كان يقتصر على ذكر مضمون إدراكى أو تصور ذهنى واحد.

* أسلوب تحليل البيانات ومعالجتها:

تم استخدام أسلوب تحليل المضمون وذلك عن طريق اشتقاق واستنتاج فئات التصنيف ووحدات التحليل من خلال الرسوم الكاريكاتيرية، وهى عبارة عن الأوصاف أو النعوت التى أطلقها الرسامون على شخصية شارون، وتم إحصاء كم مرة وردت تلك الأوصاف، وتم حساب مجموع التكرارات لكل نعت أو وصف، تقدير النسبة المئوية له بالنسبة لمجموع الرسوم ككل، وذلك للخروج بترتيب لها نستدل منه على إدراك الرسامين لملامح الصورة الذهنية لشارون، لذلك استخدمنا النسبة المئوية لترتيب الأوصاف والخصال والتشبيهات الأكثر بروزاً وعمومية من الناحية الإدراكية، ثم الأقل انتشاراً وشيوعاً فى أذهان رسامى الكاريكاتير كى تساعدنا فى تحديد جوانب وملامح الصورة الذهنية لشارون فى عمومها، بحيث تضم البارز والناثىء والظاهر منها، فى مقابل الماهل والأقل أهمية وقيمة من الناحية الإدراكية فى التصورات الذهنية للرسامين، وذلك كى تمكنا تلك النسب المئوية من الحكم بما إذا كانت ملامح ومكونات تلك الصورة من حيث تواترها وانتشارها تتواكب مع جسامة وخطورة أفعال وسلوكيات صاحبها أم لا؟

* نتائج المعالجة الإحصائية للرسومات الكاريكاتيرية:

وحسب ترتيب ورود وتواتر جوانب الصورة الذهنية لشارون وفقاً للنسب المئوية، كانت خصائص شارون وأوصافه ونعوته المدركة كالتالى:-

ترتيب عناصر ومكونات الصورة المدركة وفقاً للنسب المئوية

الترتيب	الوصف Attributes...	التكرار	النسب المئوية
١	السفاح "دراكيولا" والمتعشش للدماء، والجزار، القاتل بلا رحمة	٤٣	٣٣%
٢	الطفل المدلل وأمريكا والتابع لها، والمعتمد عليها فى الدفاع عنه وتجميل صورته	١٤	١١%
٣	مستهزئ بالأمم المتحدة والشرعية الدولية واتفاقيات حقوق الإنسان	١٣	١٠%
٤	شيطان ملعون "غول" ورأس الشر	١٠	٨%
٥	مدمر	٩	٧%
٦	عدو السلام "يذبح حمام السلام ويمزق أغصان الزيتون"	٨	٦%

الصورة الذهنية لأريل شارون

الترتيب	الوصف Attributes...	التكرار	النسب المئوية
٧	إرهابي	٧	٥%
٨	بلدوزر	٦	٥%
٨	بلطجي وهمجي و"مفرط في استخدام القوة"	٦	٢%
١٠	مستهزئ وساخر من سلبية العرب وميلهم للإدانة والشجب	٦	٢%
١٠	تلميذ هتلر، ومعلم لكل الطغاة	٥	٤%
١٠	خائن ولا يوثق في وعده وعهوده	٤	٣%
١٠	خنزير	٤	٢%
١٤	منهزم، وسيخرج الفلسطينيون منتصرين	٤	٣%
١٥	استعماري واستيطاني	٣	٢%
١٠	شخص "مسطول" وغبي لا يفهم	٣	٢%
١٠	عنصري	٣	٢%
١٨	كاذب	٣	٢%
١٩	"لبط" أو "ضاللي" وغاوي مشاكل	٣	٢%
١٠	ثور هائج	٣	٢%
١٩	مراوغ كلاء السب السكير	٣	٢%
١٠	قنبلة موقوتة تهدد السلم والأمن	٢	٢%
١٠	شخص "مضحكة" له طلبات غير معقولة	٢	٢%
١٠	جبان	٢	٢%
٢٥	لص وحرامي	٢	٢%
٢٦	أفغى أو ثعبان	٢	٢%
٢٧	ضعيف جنسياً وناقص الرجولة	٢	٢%

ويلاحظ أن النسب المئوية المقررة، والتكرارات قسمت على عدد الرسوم الكاريكاتيرية والتي بلغت ١٣٠ رسماً.

- ملاحظات عامة وإفتراضات واستنتاجات تفسيرية عن شخصية أرييل شارون المدركة:

بلغ عدد الصفات العامة وجوانب الصورة الذهنية لشارون ٢٧ صفة أو خاصية مدركة، مما يعكس تنوع جوانب تلك الصورة وتعددتها في إدراك رسامي الكاريكاتير وخيالهم، وإدراكهم وتفسيرهم ورؤيتهم وانطباعهم، كل ذلك لم يكن ذا بعد أحادي فيما يتعلق بأفعال شارون وصفاته ومواقفه وقراراته، بل هو متعدد ومتنوع المعاني والمفاهيم والمدرجات، رغم أن أفعال شارون كلها تصب في مجال

واحد هو القتل والتدمير والتخريب والعنف .. ولكن في اعتقادنا أن جسامته تلك الأفعال وفضاعتها وخطورتها وظلمها وعنفها، فضلا عن التاريخ الدموي للشخصية هو الذى فرض ذلك التعدد فى التفسير والمدركات لتلك الشخصية.

- الرسومات التى جعلته يظهر على هيئة "السفاح" صورته على أنه متعطش للدماء كالذئب، وكأنه يريد أن يحول فلسطين إلى حمام دم ليسبح فيه، ويقتل بقلب ميت وبدم بارد وبلا ضمير إنسانى، وكأنه يتلذذ كالساديين المرضى بالسير فوق جثث الموتى الأبرياء .. وهو قد فعل ذلك فعلا بالأسرى المصريين عام ١٩٥٦، فقد ظهر شارون فى العديد من الرسوم وهو يراكم جمائم الموتى ويعمل منها هراما كأنه إنجاز حضارى له ولإسرائيل، وقد صورته العديد من الرسوم فى شكل السفاح المفترس دراكيولا، والدماء تقطر من فمه ويده ملوثة بالدماء، وتتهمر الدماء من السواطير والسكاكين التى يمسك بها ويحتمى .. وهذا المكون الإدراكى القاتم والسلبى والأسود كان أبرز ما فى الصورة الذهنية أو الشخصية المصنوعة لشارون، حيث حصل على أعلى نسبة مئوية وهى ٣٣% من جملة التكرارات.

وهذا المضمون الإدراكى يجسد رد فعل ضخما وإدراكا واقعيا وحقيقيا وليس مغلوطا ومحرفا لرسمى الكاريكاتير، الذين يمثلون قطاعا من رأى العام والشارع العربى، وذلك لأثر المجازر والمذابح التى ارتكبها ولا يزال يرتكبها النازى أريل شارون فى حق الفلسطينيين العرب ... ابتداء من مذابح دير ياسين إلى قتل الأسرى المصريين وتعذيبهم والتنكيل بهم فى ١٩٥٦، ومرورا بمذابح صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ وانتهاء بأحدث مجازر ومذابح ٢٠٠٢ فى جنين وبيت لحم ونابلس وبقية القرى والمدن الفلسطينية، حتى صدق وصف السفير البريطانى بإسرائيل لفلسطين بأنها تحولت إلى أكبر معسكر اعتقال فى العالم، والذى فاق معسكر النازية الشهير "أوشفيتز"، وقد فاق شارون هتلر فى تدنيته للأماكن المقدسة بعد أن انتهك حرمة البشر وقداستهم، فالصورة الذهنية رغم ما بها من مبالغة شأن كل رسوم الكاريكاتير إلا أنها لا تكاد تختلف عن الأصل والواقع.

وعلى الرغم أن ذلك المكون الإدراكى يجسد ردود فعل طبيعية للأهوال والاضطهاد الذى يعانى منه الفلسطينيون، إلا أن الدكتور مصطفى الفقى ٢٠٠٢ يحذر من الاستغراق فى الفرع والدعر العام، لأن من وجهة نظر الفقى أن تضخيم صورة

شارون يتحول إلى ميزة له وليس نقمة، كما حدث عندما صعد نيتانياهو إلى حكم عام ١٩٩٦، وذلك لأن أغلب قادة إسرائيل يعدون تعبيراً صادقاً عن روح إسرائيل الحقيقية العنصرية والعنفية .. وينصح الفقى بالنظر إلى صورة شارون وحكومته بدون تهويل أو تهوين .. فالوقت ليس وقت (الانفعالات المرسله والمشاعر المطلقة).

(٥٢: ٢١٢، ٣١١)

ومن الناحية الشكلية .. بالغت جميع الرسوم الهزلية فى تشويه شكله، ... فزادته الرسومات تعارضاً وتشوهاً ومبالغة على ما توجد عليه شخصية شارون فى الواقع من تضخم وتشوه وغرابة ومبالغة وتناقض يثير الضحك والسخرية.

وركزت رسوم الكاريكاتير على الناحية الوصفية والسطحية للصورة الذهنية لشارون، ولم تكن الرسوم تحليلية وتفسيرية، بمعنى لم تركز على الأسباب والذوافع والظروف النفسية والاجتماعية والعقد والصراعات النفسية والاجتماعية التى جعلت شارون يتصرف على هذا النحو من الشذوذ والتطرف واللاعقلانية واللاأخلاقية ... ولم تشر الرسوم إلى الصلات والتفاعلات المتبادلة بين البناء النفسى الشخصى لشارون وأفعاله وسلوكياته السياسية.

وهذا ليس قصوراً فنياً أو منهجياً لرسمى الكاريكاتير، فليس المطلوب منهم أن يكونوا محللين أو معالجين نفسيين حتى يتغلغلوا فى دراسة شخصية شارون وينفذوا إليها من الداخل، لأن ذلك يتطلب خضوع شارون للتحليل وهذا محال، لذلك فدراستنا لا تعد بحال كما رأى "فرويد وبوليت" عندما درسا شخصية وحياة ودرو ويلسون الرئيس الثامن والعشرين لأمريكا بأنها تحليل نفسى مباشر، ولكنها دراسة نفسية من "الخارج" وتركز على الخصائص الخارجية المميزة لشخصية شارون، أى نشاطاته وأعماله ومواقفه، وللأحداث السياسية والمآسى التى فجرها، وذلك بأسلوب أو طريق غير مباشر، وهو رسوم الكاريكاتير السياسى.

(٣٥: ١٤)، (٢٢: ١٩٣)

- لم يرد فى الرسومات جميعاً أى ذكر لتأثير الأمم المتحدة وفاعليتها فى الوقوف أمام اندفاعه ورعونته وتهوره، والحد من أعماله وأفعاله الإجرامية المضادة للإنسانية وغطرسته وجبروته وعنفه، وقد كان استهتاره واستخفافه بالأمم

المتحدة وتسفيهه بها واضحاً في رسوم الكاريكاتير، حيث احتل هذا المكون الإدراكي أى غياب دور الأمم المتحدة في مواجهة جبروت شارون وعنفه، المرتبة الثالثة بنسبة ١٠%، وجاء مباشرة بعد مكون إدراكي آخر له أهميته في الصراع العربي الإسرائيلي، وهو انحياز أمريكا لإسرائيل وسلبيتها مع العرب، وهي الشريك الأول في مفاوضات السلام، ودفاعها عن شارون بالباطل وتوفير الغطاء السياسي له وإعطائه النور الأخضر كي يمضي في إرهابه وبطشه وطمغيانه، وذلك بسياستها المراوغة والكيل بمكيالين وازدواجية المعايير في الموقف الواحد والقضية الواحدة ... والميل إلى المساواة والتسوية بين الجاني والضحية والمعتدى والمعتدى عليه، ليس هذا فقط بل تميل إلى إدانة المعتدى عليه إذا صرخ وتآلم من فعل القتل بل صورّ الرئيس بوش شارون في أحد اللقاءات الصحفية بأن شارون رجل سلام ويدافع بعملياته العسكرية دفاعاً شرعياً عن أمن إسرائيل وحقها في الوجود، لأن إسرائيل في التصور الشاروني والأمريكي المغلوطة والكاذبة والمتحيزة، تعاني من الاضطهاد والإرهاب الفلسطيني حسب وهمهم وتصورهم الخرافي والمزعوم، والذي يجعلهم يسمّون أطماعهم وسياساتهم التوسعية حقوقاً مشروعة، فهم يحاربون كما يظنون في خندق واحد بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وهذا المكون الإدراكي المهم احتل المرتبة الثانية بنسبة ١١%، وهذا يعكس إدراك رسامي الكاريكاتير بأن تحيز أمريكا السافر والصريح لإسرائيل وشارون يمثل أحد العوامل المهمة في استمرار معاناة الفلسطينيين من التعذيب والقهر والظلم.

- دائماً كانت تظهر الرسومات شارون على أنه الجاني والفاعل والمعتدى ... وأن الفلسطينيين وحمام السلام وأغصان الزيتون والحقوق العربية والاتفاقات والمواثيق الدولية وقرارات الأمم المتحدة هي المجنى عليها والضحية وكبش الفداء، وهذا تصور واقعي ومعقول، لأن أحداث الحياة اليومية في فلسطين قادت الفلسطينيين العزل والمحاصرين والأبرياء إلى عرس الاستشهاد والفداء والتضحية بدون نجدة من أحد.

- لم تأت الرسومات على ذكر أى قائد سياسي آخر شريك لشارون في الحكم مثل شيمون بيريز أو بنيامين بن أليازر .. مما يشير إلى هيمنته وسطوته وسيطرته

على الحكومة، أو تحالف الشياطين كما سمّتها الصحفية مها عبد الفتاح ٢٠٠٢، على منوال وصف تحالف الشر الذى أطلقه بوش على إيران والعراق وكوريا الشمالية، وكان شارون ليس له مثيل فى دمويته وشروره وعنفه ووحشيته وعنصريته وقسوته، هذا على الرغم من وجود تلاميذ له فى الحكومة العنصرية واليمينية المتطرفة مثل القادة الفاشيين، العازر وزير الدفاع السابق ثم شاول موفاز الذى كان رئيساً للأركان ثم أصبح وزيراً للدفاع بعد استقالة العازر.

(٥٦)

- على الرغم من أن رسومات الكاريكاتير اعتمدت على تناول شخصية محورية واحدة بالوصف والتفسير والتعبير والتحليل، إلا أن ملامح وجوانب الصورة ومضامين الرؤية كانت مركبة ومتعددة ومتباينة، وعكست ردود الأفعال والتصورات المتعددة لبعض الرسامين المصريين إزاء صاحب الصورة وشخصيته وأفعاله وقراراته ومواقفه، وقد برزت بعض الصفات والتشبيهات والسننوت وطغت على البعض الآخر، مثل القاتل والسفاح الذى أخذ هيئة الشيطان وأفعاله .. وهو الطفل المدلل لأمريكا والمستند لقوتها ودفاعها عنه فى كل محفل، والمستهزئ بالأمم المتحدة والعابث بالقرارات الدولية واتفاقيات حقوق الإنسان.

وقد غلبت الصفات السابقة على بعض الصفات الأخرى التى كانت أقل بروزاً ولم يشعر بتأثيرها ولم يدرك فعلها الرسامون، مثل صفات وأوصاف خنزير وكاذب وجبان ولسه العديد من الوجوه البشعة والقبيحة والمستهجنة، وأنه لص وحرامى وثعبان أو أفعى وثور هائج ومراوغ، وكذاب، وشخص مضحكة butt أو مسخرة، وضعيف جنسياً وعنصرى واستعماري واستيطاني وشخص مسطول وغبى لا يفهم، وخائن ولا يثق فيه ...

وما استرعى انتباه الباحث أن رسامي الكاريكاتير لم يركزوا على تصور ذهنى أو ملمح إيراكى لصورة شارون يحتل أهمية قصوى وحاسمة فى الصراع العربى الاسرائيلى .. ألا وهو قلة فاعلية وتأثير العرب وعجزهم وسليبيتهم واكتفاؤهم بالشجب والإدانة والاستنكار وصراعاتهم مع بعضهم البعض وتفككهم، حتى لدرجة أن تصويراً كاريكاتيرياً أشار بأن القمم العربية لا تجتمع ولا تلتئم إلا عندما يحن العرب للشجب والإدانة والاستنكار.

وفى إحدى الصور الكاريكاتيرية ظهر فيها شارون يجلس إلى مائدة مع أمريكي ويقوم بعمل سلطة ويقول له (هاعمل لك سلطة "سلام" تستاهل بـك .. خيار استراتيجى، وطماطم استنكارى مع شجب وإدانة بالزيت والخل)، فهذا الإغفال اللاشعورى أو أسلوب التعامى scotomizatio اللاواعى بلغة التحليل النفسى له دلالة نفسية واجتماعية وسياسية لا تخطئها العين الباحثة والناقذة والمحللة .. وهذا التغافل أو التعامى أو إغفال الوعى لا يرجع فى اعتقادنا لعدم إدراك رسامى الكاريكاتير لذلك الجانب أو المكون الإدراكى فى الصورة، ولكن لشعورهم العميق بأن ذلك الميل السلوكى لدى العرب أصبح أمراً واقعياً ومعتاداً ومسلماً به وسائداً فى الواقع العربى، وأصبح لا يقلق العرب ولا يثير استغرابهم ولا نقدهم ولا فزعهم.

ویدخل فى طور الإغفال، عدم إظهار رسوم الكاريكاتير خصال وأوصاف مهمة ومؤثرة فى الصراع العربى الاسرائيلى من حيث الأسباب والحلول ... وهى أن شارون يمثل كيانا استيطانياً عنصرياً واستعماريّاً .. وهذه الطبيعة النفسية والاجتماعية والسياسية للكيان الصهيونى تجعل إسرائيل كياناً غريباً عن المنطقة، ويقوم ببث بذور الفرقة والتشردم والتمزق فيها، ويعمل على استغلال ثروات العرب ومواردهم ونهبها واستنزافها، ويعمد إلى بسط الهيمنة والتوسع والنفوذ والسلطان، فالصهاينة فى الشرق الأوسط صنائع الاستعمار الغربى، فالوجود الصهيونى لازم وضرورى لمصلحة الغرب، مما لا يمكن معه فصل مصالح إسرائيل عن مصالح الغرب، وإسرائيل نفسها فى خطابها الإعلامى والدعائى تقدم نفسها للرأى العام العالمى على أنها دولة ديمقراطية وعصرية متقدمة، وأنها تعد امتداداً طبيعياً للحضارة الغربية.

(١٧: ٥٩٥ - ٥٩٦)

بل يُلح الإسرائيليون على أنهم شعب الله المختار والخليق بقيادة العالم، فهو المميز والفائق فى خصاله وقدراته على جبرانه العرب ... فتلك النظرة الاستعلانية والتمييزية Discriminative (أى التفرقة المصطنعة والتمييز بين الأجناس والشعوب على أساس الجنس أو العنصر)، يذكرنا بالعقيدة والإيديولوجيا النازية والفاشية، ويؤكد تلك الحقيقة لويس ملكية ١٩٧٠: (لقد استعارت العنصرية الصهيونية من العنصرية النازية كل منطقها وكل أساليبها).

(٣٨: ٥١٧)

وهذه الطبائع والخصال العنصرية والاستيطانية تجعل السلام الدائم والقائم على المساواة والعدل كهدف منشود ومأمول من التفاوض والتفاهم مع الكيان الصهيوني هدفاً محالاً وبعيد المنال، وجدير بالذكر أن تلك الطبيعة الجوهرية يغفل كثيرون عن إدراكها والوعى بها وتقدير خطورتها.

ولكن تلك الطبائع لم تعد من يفندوها ويمحصها ويبين خطورتها .. فقدم الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودى ١٩٩٨ فصلاً كاملاً وتسجيلياً فى مؤلفه الهام (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) عن الأطماع الصهيونية الاستيطانية فى المنطقة والتطهير العرقى purge، وهذه الأطماع وردت ولا زالت ترد على لسان معظم الساسة والأدباء والكُتاب والصحفيين الإسرائيليين، ومنه نقتطف كلمات أحد الصهاينة "يورام بن بورات" حين قال: (لن تكون هناك صهيونية، ولن يكون هناك وجود استيطانى للدولة اليهودية إلا بطرد العرب والاستيلاء على أراضيهم) .. وقند جارودى عبر صفحات الكتاب الكثير من الأساطير والخرافات السياسية الإسرائيلية ... ومنها خرافة الشعب المختار، وخرافة أن الصهيونية ذات طابع ديمقراطى ومعادٍ للفاشية، وركز جارودى على دور الدعم المادى وأكد على تأثير التمويل الخارجى من الغرب لإسرائيل، لتكون الذراع الطولى للغرب وتقوم بدور الوكيل الاقتصادى له فى المنطقة العربية.

(١٩: ٥٤ - ٦٢، ٧٣)

وأيضاً من جوانب الصورة التى لم يلتفت إليها كثيراً المكون الإدراكى القائل إن شارون ضعيف جنسياً وناقص الرجولة، ومما لا شك فيه أن ذلك المكون يثير قضايا عامة وفرعية شائكة ومركبة ولم يحسم ويفصل فيها النقاش بعد ولا يتسع المقام هنا لمناقشتها الآن.

لكن بصفة خاصة وهذا ما يهمنى بصدد الشخصية موضوع الدراسة الحالية، أنه يجب أن نلتفت إلى علاقة الشعور العميق بالنقص أو العجز أو الضعف والضالة وفقر الإمكانيات فى أى قدرة من قدرات الشخصية، بالميل إلى التعويض، والمبالغة فى تأكيد الذات، وإثبات الكفاءة والقوة والقدرة على تحقيق معدلات عالية من الإنجاز فى أى مجال من مجالات الحياة العملية، فالشعور العميق بالنقص يجعل الفرد يندفع قهراً وبالإحاح وإصرار نحو ممارسة أعمال وأنشطة بها قدر عال من تأكيد وإثبات الذات Self Actualization، وبشكل مبالغ فيه ومتطرف.

وقد أطلق عالم النفس ألفريد أدلر على الحاجة الملحة إلى تلك الممارسات والسلوكيات والأعمال المتشددة والمبالغ فيها والمفرطة اسم الحاجة إلى القوة Will to power، أو الحاجة إلى التفوق والامتياز Superiority .. مثلما فعل الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت، ويسعى دؤوب وبطريقة لا تسامح ولا لين فيها باستغراقه في أنشطة فيزيقية قوية وعنيفة كنوع من التعويض الفائق Overcompensation عن قصوره الشخصي.

وكذلك ميل الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش (الابن) بإفراط وبطريقة لا هوادة فيها إلى الحلول العنيفة والقاسية والظالمة، والتي تستند إلى الطرق العنيفة والقوة المسلحة والمدمرة في حل المشكلات السياسية، مثلما فعل في أفغانستان وقتل الآلاف من الأبرياء بالأسلحة الحديثة ليقبض على أسامة بن لادن والملاّ عمر، ولم يتمكن منهما .. ومثلما فعل ويفعل بالعراق ... وهي أساليب تشبه أساليب الزعيم النازي "أدولف هتلر" وذلك بسبب شعور بوش الداخلي والدفين بالنقص والضالة والقصور .. لأنه لم ينس أنه جاء إلى الرئاسة بحكم محكمة وبفارق عدة آلاف من الأصوات عن منافسه آل جور .. وهو كثيراً ما يقارن بالإنجازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأبيه جورج بوش الأب .. وكثيراً ما تتم مقارنته بالرئيس السابق بيل كلينتون وما له من شخصية كاريزمية ساحرة وآسرة، وبريق لامع سواء داخل أمريكا أو خارجها على الرغم من أخطائه وأنه أصبح رئيساً سابقاً، والمقارنات ليست دائماً في صالحه.

وبالقياس بالنسبة لشارون فإنه من المحتمل أن ما فقدته من لذة ومتعة في الجنس منذ عقود طويلة يريد أن يعوضه بالحصول عليه من خلال التلذذ السادي والاستمتاع الشاذ بالتدمير والتخريب والعنف والقتل وسفك الدماء والتطهير العرقي والقضاء على كافة مظاهر الحياة في فلسطين، وإصراره على اللجوء إلى الحرب والغزو والحلول الإرهابية ونبذ الحلول السلمية والتفاوضية .. وهو يحسب أن ذلك إنجاز له وإثبات للفاعلية والتأثير وتحقيق لإمكاناته التي افتقدها في مجال اللذة الجنسية التي تعذبه وتؤرقه باستمرار.

وجدير بالذكر أن الحاجة إلى القوة وإثبات التفوق بهذا الشكل المفرط والمتطرف لا تتحقق فقط كما يظنها البعض في إطار العلاقة بالآخرين والتفاعل

معهم، ولكنها تظهر وتتحقق بصورة مبالغ في مجال العلاقة بالذات، بمعنى أن الفرد يحاول جاهداً وبمشقة في الانتصار على نقاط ضعفه وقصوره وشعوره بالخل والهوان من عززه وسلبيته أمام نفسه.

- هيمنت على رسومات الكاريكاتير الأوصاف والتشبيهات والكنائيات المحسوسة، حيث كانت الغلبة والتأكيد للخصال والأفعال التي لها نتائج مادية ملموسة على المسرح السياسي، وظاهرة للعيان ويعانى منها الفلسطينيون بصورة يومية، مثل صفات القاتل والسفاح أكل لحوم البشر، والدموى مصاص الدماء والجزار والبلدوزر والبلطجي الهمجى المدمر، وثور هائج وخنزير.

وذلك أكثر من الصفات الشخصية المجردة والرمزية مثل شيطان أو غول ذو الوجه القبيح وعدو السلام وقنبلة موقوتة مهددة للسلام والأمن الدولي، واستعماري استيطاني وتلميذ هتلر ونازي ومعلم لكل الطغاة، وعنصري متعطر ومتسلط وباحث عن المشاكل، وكذاب ومستهزئ بالعرب، وله طلبات مضحكة مثلما طلب حضور مؤتمر القمة العربية في بيروت ٢٠٠٢ لمناقشة الأمير عبد الله في مبادرته السلمية ..

وهذا يقودنا إلى القول بأن الصورة الذهنية لشارون جاءت واقعية وملموسة، وكريهة ومذمومة، وبالغة التشوه ويغلب عليها الاستهزاء والذع والوخز والتهكم والازدراء أكثر منها صورة مجردة ورمزية، حيث ارتبطت الصورة الذهنية بالأفعال الإجرامية الملموسة ونتائجها المدمرة والبشعة، واتسقت مع خطورتها وعدوانيتها وساديتها وحجم الدمار والخراب الذي نجم عنها.

حيث وصفت تصرفات شارون وقراراته وسلوكياته العامة مع الفلسطينيين بما تستحق من أوصاف وتشبيهات، تجرمها وتدينها، وتدمعها بالخزي واللاإنسانية والقسوة والظلم ... حتى لتتضاعل معاني الكلمات أمام بطش شارون وأذاه وعنفه وعسفه واضطهاده بالفلسطينيين، وفنكه بكل مظاهر الحياة (نباتية وحيوانية وإنسانية) وحضارية في فلسطين.

وهذا جعل الصورة المدركة كما عكستها رسوم الكاريكاتير محملة بكم هائل ومتنوع من المشاعر والانفعالات الغاضبة والساخطة والكارهة لشارون، لأنه عدو شرير وهمجي وعنفه مدمر، ويقتل ويغتال الأبرياء والأطفال الرضع بدم بارد، ولا يعرف الرحمة ولا الشفقة، ولا أى حق من حقوق الإنسان، وفي هذا المقام يوجد

من يعتبر أن كراهيتنا ورفضنا وغضبنا ومقاطعتنا للعدو هي أحد أهم أسلحتنا السياسية في مواجهة عدو جبار وغادر وخائن.

- ويلاحظ أيضاً أن معالم تلك الصورة المرسومة لشارون تتناغم وتتسجم مع معالم صورته المرسومة ثورياً في الكتابات والمقالات في وسائل الإعلام وخاصة الصحافة، حيث تبرز أيضاً صفات الجزار ومجرم الحرب والإرهابي، وقاتل الأبرياء وعدو السلام والبلدوزر أو القاطرة البشرية، والسفاح صاحب مذبح دير ياسين وصبرا وشاتيلا، ومغذب العمال المصريين وقاتل الجنود المصريين عام ١٩٥٦، فهو رئيس عصابة من المستوطنين، ومحترف عنف وهمجي وبربري، فظ وغلظ القلب ووحش ضار.

ولكن مصطلح السفاح الدموي والإرهابي المجرم كانت الأكثر شهرة وذبوحاً لأن سجله التاريخي ينضح بذلك، فعلى سبيل المثال .. وصفه الصحفي "محمود عبد المنعم مراد" بالسفاح الأكبر، "بهبجت فرج وعلى هاشم وسناء قبيل وإسلام كمال بالإرهابي والسفاح، ووصفه "وجيه أبو ذكرى" بالإرهابي، "ومصطفى الفقى" وصف أفعاله بالجرائم وسياسته بالقهر العسكري وتاريخه ملوث بالدماء وسحق الأبرياء وذبحهم، ووصفه "جمال كمال" بنفس الوصف تقريباً (أريل شارون. ذلك الجنرال الذى كتب تاريخه بالدم والنار).

ووصفه الصحفي "عبد العال الباقورى" هو وحكومته (بالصقور الكاسرة)، ووصفته "مها عبد الفتاح" بالشيطان، وهو وحكومته بتحالف الشياطين .. هذه أمثلة فقط وليس حصراً وإحصاءً.

(٥٧)، (٤٨)، (٥٢)، (٥٦)، (٣)، (٤٣)، (٢٨)، (٦)، (٣٤)، (١١)

وهذا يشير إلى وجود نوع من التناغم والانسجام والمطابقة وعدم التنافر Congruity فى الإدراك والرؤية والتفسير ما بين رسامى الكاريكاتير والكتاب والصحفيين، إلى مستوى قد يصل إلى درجة الإجماع consensus فى إضفاء المعانى وتأويل أفعال ومواقف سمات شارون، ووصمها بما تستحق من أوصاف وتشبيهات ونعوت.

ومما سبق نستنتج أن الصورة الذهنية لشخصية شارون كما عكستها بعض رسوم الكاريكاتير واقعية أو فعلية Factual أكثر منها خيالية ومتوهمة، وتتسق وتتواكب في تنوع جوانبها ومكوناتها المدركة (٢٧ خاصة ووصفاً) مع الأعمال الإجرامية والقرارات والمواقف والأنشطة الإرهابية المدمرة لحياة الشعب الفلسطيني، ولم يكن في تلك الرسومات أثر قوى للخيال والاختلاق والزعيم والتحريف، والإضافة والتخييل بوصفه نشاطاً أو خبرة نفسية لا شعورية إلا القليل .. حيث لم يظهر التخييل والمبالغة والتحريف إلا في تصور رسامي الكاريكاتير لشارون مثلاً على أنه دراكيولا والشيطان أو الغول وبوصفه عدواً للسلام.

فمن المعروف أن عملية الإدراك والتصور هي في التفسير النهائي تخضع بصفة إجمالية لمجموعتين من المؤثرات، الأولى، تتعلق بالخصائص المادية والمعنوية أو الكيفية للموضوع أو المثير المدرك Stimulus properties. والمجموعة الثانية تتعلق بالمؤثرات السلوكية والاجتماعية والسياسية، مثل الدوافع والرغبات والطموحات والقيم والاتجاهات والضغوط والصراعات النفسية والاجتماعية والإحباطات والتخييل.

ففي بعض الأحيان تتوازن وتتعاقل المجموعتان من المتغيرات في التأثير على عملية الإدراك .. وأحياناً تتفوق إحدى المجموعتين في التأثير والنشاط وتبرز الأخرى .. وفي حالة بحثنا أثرت خصائص شارون ومواقفه وأفعاله تأثيراً كبيراً في الصورة الذهنية المدركة عنه، أكثر مما أثرت وغلبت تصورات وأحكام وتقييمات ومعتقدات المتصورين أو المدركين Perceivers، وهم رسامو الكاريكاتير الهواة والمحترفين.

(٦٥: ٢١ - ٢٢)

وكان شارون بلغ في الظلم والقتل والعنف وسفك الدماء مداه "المطلق" وبشكل غير مسبوق، بحيث غلبت صورته الواقعية المدركة على أى تصور متخيل ووهمى ومزعوم .. مما يدفع عن رسامي الكاريكاتير الاتهام بالتحيز والتحامل والتعصب وعدم الموضوعية، والذي يتم إسقاطه بطريقة لا شعورية على الموضوعات المدركة، ويعصمهم في الآن نفسه من التهمة السائدة في إسرائيل وفي الغرب حسب الموضة السياسية، أو الأكلشيه السائد الآن في الأدبيات السياسية الغربية المتحيزة والذي يرضى اليهود وينافقهم. ألا هو (معاداة السامية)، مثلما أنهم روجيه جارودى والكاتب الصحفي إبراهيم نافع والفنان محمد صبحي.

وإذا نظرنا إلى السمات السيئة البارزة لدى شارون كالإفراط في استخدام القوة والبطش والتكيل، وإظهار النزعة إلى الاستعلاء وكراهية البشر وبغضهم والنفور منهم Misanthropy، والتطرف في التعبير عن العدوان والإرهاب وفرض الهيمنة والنفوذ في التعامل مع الآخرين، وذلك في ضوء منظور التحليل النفسي، نجده يخفى ضده ونقيضه تماماً، أى أن تلك المظاهر السلوكية والاتجاهات السياسية ما هي إلا تكوين عكسي لمشاعر وانفعالات وأفكار وخبرات لا شعورية دفينة ومسقطة على موضوعات العالم الخارجى.

ففى مثل تلك الحالات المرضية نجد الأفراد يلجأون إلى ذلك كحيلة أو كميكانيزم نفسى دفاعى ليقوا أنفسهم مغبة الوقوع الفعلى فى الإنهيار والإضطراب النفسى والعقلى، وليحتموا من الإحساس بالعجز فى مواجهة الصراعات والضغوط النفسية والمآزق والتوترات والقلق والمخاوف المرضية بأنواعها، فقد ثبت أن معاناة الإحباطات وضروب الفشل والتوترات والكروب agonies والصراعات Conflict ridden conditions وعدم القدرة على حلها ومواجهتها على نحو صحيح وسليم وتوافقى، تزيد من العدوان التسلى والنفرة العدائية والعقابية Punitiveness، والميل إلى التخريب والتدمير والقضاء على مظاهر الحياة والعمران، وأبرز مثال لذلك كان الزعيم النازى هتلر.

(١٩٢: ٦٧)

وهذه الازدواجية والتناقض الفكرى والوجدانى يعكس شخصية مضطربة ومتناقضة نفسياً وممزقة بأضدادها وصراعاتها، وفى الحالات المرضية القصوى تعبر عن شخصية برناوية Paranoid personality، حيث يتم إسقاط الشعور بالتهديد والخوف والفرع على العالم الخارجى فى صورة خبرات اضطهادية، ويتم تحويل ونقل تلك المشاعر والانفعالات المضطربة والعقد النفسية من العالم النفسى الداخلى إلى عالم السياسة، ولتحقيق أغراض ومكاسب وأهداف سياسية غير مشروعة.

وفى إطار العلاقات النفسية المضطربة بالآخر، هؤلاء الأفراد يبالغون فى التعبير عن القوة المتغترسة والغاشمة فى العلاقة بالآخرين ومجازرة المدى فى ظلمهم، وذلك لحماية أنفسهم من مخافة الخضوع للآخر والاستسلام لمطالبه

ورغباته وسطوته وأفكاره، وإنكاراً ونفياً للاعتراف بالعجز والاحباط والضعف والقصور الشخصى والخوف أمامه، أو الظهور بمظهر الضحية Victim، ومن ناحية أخرى، فالخوف المرضى من الآخرين أحيانا يعكس الخوف من الذوبان فيهم، والشعور بالذعر والهلع من الانمحاق والطمس أو الابتلاع فى الآخر، وفى ثقافته وفى تاريخه، فالعدوان قد يكون مخافة الخضوع Submission الذليل للآخر، ولتجنب الأمتثال والانقياد له، وليس بسبب الإحباط واليأس فقط كما قال دولاورد وزملاؤه وفرويد فى أيامه الأولى..

فالتستر وراء اللجوء إلى القوة وتقديسها والاحتماء بها والإسراف فى استعمالها يعمل كميكانيزم نفسى دفاعى مثله مثل الحصن أو المتراس Bulwark الذى يلوذ به الفرد كملاذ آمن من الأخطار والشعور بالتهديد والخوف والألم النفسى، أو الوقوع فى العصاب النفسى Neurosis .. وإلا بما نفسر تبرير ضرب ومحو شعب مغلوب وأعزل، وسحقه ومحقه وخسفه بكل أنواع أسلحة التدمير والتطهير العرقى Purge، وقبول الإسرائيليين والأمريكان لتلك الأفعال المعادية للإنسانية وتفسيرهم لها بأنها دفاع شرعى عن النفس.

ولا يكاد يختلف الدارسون العرب أو الإسرائيليون أنفسهم على استنتاج مؤداه .. أن افتقاد الشعور بالأمن أو ما اصطلح على تسميته بالمسألة الأمنية فى إسرائيل هى العامل الأساسى والحاسم وراء الإجرام الشارونى، وهى التى تلعب الدور الأكبر فى التأييد الكبير والكاسح لشارون وحزب الليكود، سواء فى الانتخابات، (وآخرها الفوز الساحق لشارون فى انتخابات يناير ٢٠٠٣) أم فى أثناء رئاسته للوزراء وتأييد قراراته وأفعاله وممارساته.

ويلاحظ أيضا أن كل النعوت والأوصاف التى تُسبِت كسمات شخصية لشارون من وجهة نظر رسامى الكاريكاتير، هى تشبيهات مخزية ومزرية وشاذة ومتطرفة، مما يستحق معه الاستخفاف والاستهزاء والازدراء والاحتقار Scorn والانقاص واللوم والتقريع، وقد لخص تلك الصفات (لأغراض انتخابية) رئيس حزب شاس الإسرائيلى المتطرف عندما استبعده شارون لأول مرة من تشكيل الوزارة اليمينية، قائلاً بأن شارون يمثل رئيساً لمُجمع القمامة

وجدير بالإشارة أن هذه الملامح والأوصاف التي رسمها رسامو الكاريكاتير المصريون لا تمثل في نظر المجتمع الإسرائيلي نقاط ضعف وقصور شخصية Deficiencies يعاني منها شارون شخصياً .. فعلى الرغم أنه متهم بالفساد السياسي وتقاضى رشاو بعشرات الملايين من الدولارات هو وولده (عمرى وجلعاد)، والتي جرت عليه كثيراً من السخط والغضب والامتعاض (في بعض وسائل الإعلام فقط) والذي سرعان ما تبخر، إلا أن معالم صورته الذهنية لدى قطاع كبير من الشعب الإسرائيلي لا زالت بَرّاقة، (وهو قطاع يمينى وعنصرى ودموى ونازى مثله)، حيث يراه قائداً محنكا وذا خبرة سياسية طويلة، وقاهراً للارهاب الفلسطيني (حسب زعمهم)، ومحارباً شجاعاً لا يعرف التهاون أو اليأس أو الاستسلام، ويحارب من أجل الدفاع عن أمن إسرائيل ومصحتها، وهو واجب مقدس. ولتلك الأسباب والدوافع (الأحادية) يقبلونه بكل خصاله وسلوكياته ويبررونها ويلتمسون له ألف عذر وحجة.

وهو يواجه بحسم وشدة الصراع العربى الإسرائيلى ويتحمل تبعاته، ويدبر حرباً شعواء ضد الكفاح والمقاومة والانتفاضة الفلسطينية، والتي يرونها عدواناً وإرهاباً وتطرفاً فلسطينياً، وذلك بالتدمير والحصار والاجتياح للأراضي الفلسطينية، وإبعاد القيادات الفلسطينية وعلى رأسها ياسر عرفات، واغتيال النشطين السياسيين الفلسطينيين من حركتى حماس والجهاد الإسلامى، وهو الوحيد المؤهل لتوحيد وتجميع شتات الشعب الإسرائيلى إزاء الخطر الفلسطينى الداهم، بفرض سياسة الأمر الواقع وتكريس الاحتلال والهيمنة والاستيطان والفصل العنصرى Desegregation، وهو يمثل أهم الشخصيات السياسية المتمسكة بالوهم والحلم الأسطورى التوراتى القديم (وهو حلم إسرائيل الكبرى - من النيل إلى الفرات)، وهى صورة فى عمومها إيجابية وبراقة وجذابة لدى قطاع كبير من المجتمع الإسرائيلى، والذي أصبح يتسم فى أغلبه من الناحية السياسية بالنزعة اليمينية العنصرية والعنصرية والمعادية للسلام والكارهة للآخر.

بينما الأقلية اليسارية وأنصار السلام ومناهضو الحرب وأحزاب الوسط وبعض أوساط العلمانيين فى إسرائيل رأّت صورة شارون أنه سياسى هاو، ويفتقر للحنكة السياسية التى كانت لإسحاق رابين أو جولداماير، وأنه قائد متعالٍ

ومتعطرس و شخصية تسلطية Authoritarian ومهددة لأمن إسرائيل، وصاحب عقلية خرفاء وسياسة متخبطة وقصير النظر، ولم تجر سياسته على إسرائيل إلا الأزمات السياسية والاقتصادية، لأنه غير مستعد لتقديم أى تنازلات من أجل السلام مع الفلسطينيين، وغير مقتنع بأن الإفراط والتشدد فى استخدام القوة لن يحل مشاكل إسرائيل، ولن يجلب لها الأمن والاستقرار والسلام .. وهى صورة ذهنية كونتها فقط الخصومة والمصالح والصراعات السياسية والتناحر بين الأحزاب الإسرائيلية المتنافسة على الحكم وعضوية الكنيسة، ولم يكونها الحرص على المبادئ والمثل والقيم السياسية والإنسانية والتمسك بالحقوق الشرعية للفلسطينيين.

وهذه الصورة الذهنية للإسرائيليين والمضادة فى أغلبها لصورته الذهنية لدينا، لا تعنى أن النعوت والأوصاف والخصائص التى أسقطت على شخصية شارون كانت من منطلق التباغض أو التحاسد أو التنازب بالألقاب، والسخرية والخصومة والعداوة الشخصية، (التشنيع والانتقام وتلويث السمعة)، أى أنها ليست من نتاج الخيال المحض والوهم والتشفى والافتراء والأكاذيب والظلم والرغبات المغرضة، ولكنها فى حقيقة الأمر نعوت وأوصاف من باب إقرار الواقع وحقيقة المعاناة والمظالم والقهر اليومي الذى يمر به الشعب الفلسطينى.

وعلى الرغم من واقعية تلك الحقائق والوقائع والأحداث فقد عكست الصورة الذهنية المدركة الأفكار والمدرجات والدلالات والرموز والمعانى النفسية والسياسية إزاء تلك الوقائع و المسقطة Projected على صورة شارون، واكتسبت أهميتها ومدلولاتها وقيمتها فى ارتباطها اللصيق بالمشكلة الفلسطينية باعتبارها جوهر الصراع العربى الإسرائيلى، والذى يعانى من عدم توازن القوى السياسية Unbalance، وميل الميزان لصالح إسرائيل، على حساب الضعف والهزال والتراجع العربى، والإهمال الدولى والمشاهدة السلبية والصمت من قبل المؤسسات والهيئات السياسية العالمية، والتى عبثت وسخرت لضرب شعب العراق المسكين والمغلوب على أمره والغارق فى المعاناة والظلم من العقوبات الدولية.

فكل هذه الخصال والأوصاف والنعوت المدركة هى بمثابة مرآة عاكسة لذلك الصراع المصيرى .. وبمعنى آخر إنها تمثل استنتاجات وأحكاماً Judgements وتقييمات Evaluations وتأويلات لنتائج تصرفات وأفعال وقرارات ودوافع

ممارسات شارون السياسية العنيفة والظالمة والعنصرية وغير المبررة واللاعقلانية واللاإنسانية بحق الشعب الفلسطيني، وهي صورة تمثلت وتشكلت في خلفية أو في ظل ديناميات وتفاعلات ومحددات Determinants الصراع العربى الإسرائيلى والقوى المؤثرة فيه .. فالصراع العربى الإسرائيلى هو الإطار المرجعى frame of reference لتلك الصورة الذهنية لآريل شارون، والتي أضفت البعد السياسى والاجتماعى للصورة، بالإضافة لأبعادها النفسية والشخصية، وسواء من ناحية العرب أو الإسرائيليين.

وفى نهاية المطاف لا يسعنا إلا أن نؤكد حقيقة أن هذه الصفات والنعوت التى تشكل ملامح الصورة الذهنية لشارون رغم بروزها وواقعيتها ووضوحها للمشاهد والمراقب والمنصف والموضوعى، إلا أنها قد لا يعترف بها الإسرائيليون ولا يقرها الأوروبيون والأمريكان المتعاطفون معهم والمدافعون عنهم ظلما وبهتاناً .. وذلك لأنهم لا يربطون ملامح ومكونات تلك الصورة بقرارات وأفعال واتجاهات شارون إزاء الفلسطينيين، وتفكيره الاجتماعى والسياسى إزاء القضايا والحقوق العربية، والتى لا تلقى اهتماماً يذكر من أكثرية الغرب والأمريكان، ولا تستدعى منهم حتى الشعور بالذنب أو تأنيب الضمير.

* قائمة المراجع:

- ١- إبراهيم عبده، الصحفى الثائر، كتاب روز اليوسف، ع٧، القاهرة، ١٩٥٥.
- ٢- أروين ادمان، الفنون والإنسان، ت. مصطفى حبيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- ٣- إسلام كمال وسناء قابيل، إرهابيون يرتدون عباءة الحاخامات، مجلة روز اليوسف، العدد ٣٧٧٦، القاهرة، ٢١ أكتوبر ٢٠٠٠.
- ٤- أنور عبد الملك، نهضة مصر، ت. حمادة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- ٥- برنارد نوتكات، سيكولوجية الشخصية، ت. صلاح مخيمر وعبد رزق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.
- ٦- بهجت فرج، جنرالات بالألوان، مجلة كاريكاتير، العدد الثالث، القاهرة، سبتمبر ٢٠٠١.
- ٧- ثروت عكاشة، الفن المصرى، دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- ٨- جريدة الأهرام، بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٩٧.
- ٩- ج. ف. بلخانوف، الأدبيين المادية والمثالية، ت. حامد أحمد حمدان، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٥٦.
- ١٠- جمال الدين الرمادى. عبد العزيز البشرى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- ١١- جمال كمال. شارون. هل يهدم المعبد؟ جريد الجمهورية بتاريخ ٧ / ١١ / ٢٠٠٢.
- ١٢- جمعة فرحات. بهجت عثمان، مجلة كاريكاتير، العدد الثانى، القاهرة، يوليه ٢٠٠١.
- ١٣- جوردون البورت، نمو الشخصية، ت. جابر عبد الحميد ومحمد مصطفى الشعبينى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣.
- ١٤- جوزيف جاسترو. الأحلام والجنس، ت. فوزى الشتوى، الجزء الأول، سلسلة الألف كتاب، ع ٦٩، دار الكتاب المصرى، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- ١٥- جيمس هنرى بريستيد، فجر الضمير، ت. سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.

- ١٦- حامد ربيع، بحث استطلاعي للكشف عن مقومات المنطق الدعائي الاسرائيلي عن طريق استخدام تحليل المضمون لبعض عينات من الإعلام المكتوب الدورى بغرب أوروبا، فى .. لويس ملكية (محرر) قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- ١٧- حامد ربيع، حول التحليل العلمى لمفهوم الطابع القومى المصرى، فى ... لويس ملكية (محرر) قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠.
- ١٨- حسين عبد القادر، مصطلح صورة متخيلة، فى موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، تحرير فرج طه، دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣.
- ١٩- روجيه جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ت. محمد هشام، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٢٠- سيد خيرى، الاستجابات الإدراكية للأحداث المنحرفين، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٢١- سيد صبحى، أثر الاتجاهات الوالدية والمستوى الثقافى للوالدين على تنمية الابتكار، فى الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية (تحرير سمىة فهمى)، القاهرة، ١٩٧٥.
- ٢٢- شاكى عبد الحميد، التفضيل الجمالى، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٦٧، الكويت، مارس ٢٠٠١.
- ٢٣- شوقى ضيف، الفكاهة فى مصر، كتاب الهلال، ع ٨٣، القاهرة، ١٩٥٨.
- ٢٤- شوقى عبد الحكيم، الضحك من غير سبب، جريدة الأهرام، ١ / ١٢ / ٢٠٠٢.
- ٢٥- طه حسين، ألوان، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٠.
- ٢٦- عادل حموده، النكتة السياسية، دار الفرسان للنشر، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٢٧- عبد السلام عبد الغفار، طبيعة الابتكار ... إطار نظرى مقترح، فى الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية، تحرير سمىة فهمى، القاهرة، ١٩٧٥.
- ٢٨- عبد العال الباقورى، من رايبين إلى شارون، جريدة الجمهورية، ٧ / ١١ / ٢٠٠٢.

- ٢٩- عبد العزيز القوصى، تقديم كتاب مالك بدرى، سيكولوجية رسوم الأطفال، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦.
- ٣٠- عبد القادر القط، البهجة والضحك الأجوف، جريدة الأهرام، ٢٢ / ٤ / ٢٠٠٢.
- ٣١- عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية فى مصر، الجزء الثالث، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٩.
- ٣٢- عبد الله أحمد عبد الله، الصحافة الفكاهية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.
- ٣٣- عبد الله إمام، التعامل مع إسرائيل، مجلة روز اليوسف، القاهرة، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٠.
- ٣٤- على هاشم، الشعب الإسرائيلى يحاكم شارون، جريدة الجمهورية ٨ / ٨ / ٢٠٠٢.
- ٣٥- فاليرى ليبين، مذهب التحليل النفسى والفريدوية الجديدة، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨١.
- ٣٦- فرج طه، انظر مواد .. صورة الأب، وصورة الأم، موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، تحرير فرج طه، دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٣٧- كارل فلوغل، علم النفس فى مائة عام، ت. لطفى فطيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- ٣٨- لويس مليكة (تحرير) قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٣٩- لويس مليكة، علم النفس الإكلينيكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.
- ٤٠- لينين الرملى، لك يوم يا ساخر، مجلة الهلال / القاهرة، ديسمبر ١٩٩٥.
- ٤١- مالك بدرى، سيكولوجية رسوم الأطفال، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦.
- ٤٢- ماهر شفيق، مقدمة كتاب أروين أدمان الفنون والإنسان، ت. مصطفى حبيب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- ٤٣- محمد خالد الأزعر، أوراق جديدة فى حسابات القيادة والمقاومة والسلام، جريدة الأهرام، ١٧ / ٤ / ٢٠٠٢.

- ٤٤- محمد دواره، الكاريكاتور، دائرة معارف الشعب، كتاب الشعب، ع ٥٨، القاهرة ١٩٥٩.
- ٤٥- محمد مصطفى سلام، عبد العزيز البشري، جريدة الأهرام، ٩ / ٥ / ١٩٩٧.
- ٤٦- محمود السعدنى، الظرفاء، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٢.
- ٤٧- محمود السعدنى، المناضل أبو رسومات، مقدمة كتاب يوميات رسام الكاريكاتير أحمد طوغان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أكتوبر ٢٠٠٠.
- ٤٨- محمود عبد المنعم مراد، كلمات، جريدة الأخبار، ٦ / ١١ / ٢٠٠٢.
- ٤٩- مختار السويفى، الضحك والسخرية عند المصريين القدماء، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر، ١٩٩٥.
- ٥٠- مختار حمزة، تأهيل العجزة وذو العاهات، فى يوسف مراد "تحرير"، الكتاب السنوى فى علم النفس، دار المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٥٤.
- ٥١- مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤ أنظر (مادة ملكة الخيال)
- ٥٢- مصطفى الفقى، العرب الأصل والصورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ٥٣- مصطفى أمين، السخرية فى حياتنا من رخا إلى أحمد رجب، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر، ١٩٩٥ م.
- ٥٤- مصطفى زيور، مادة .. تخيل، فى معجم العلوم الاجتماعية، تحرير إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥.
- ٥٥- مصطفى عبد المعطى، مقدمة كتاب يوميات رسام كاريكاتير، أحمد طوغان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أكتوبر ٢٠٠٠.
- ٥٦- مها عبد الفتاح، تحالف الشياطين وصراهم، جريدة الأخبار، ٦ / ١١ / ٢٠٠٢.
- 57- Corsini, Raymond, (Editor) Encyclopedia of psychology, v.2, Awiley – interscience, publication . New york, 1994 . see entry of Image .

- 58- Couey, fred, Introductory psychology, coller book, New york, N,y . 1963 .
- 59- Engle, t.l . & Snellgrove l ., psychology .Harcourt, Brace & world, inc . New york, 1969 .
- 60- Gecas Viktor, self concept, in the social science encyclopedia, edited by kuper, Adam and jessica, routledge, new york, 1996 . entry of self concept .
- 61- Kelley, Harold H., the worm – cold variable in first impression of persons, in proshansky & seidenberg, (Editors) Basic studies in social psychology, Halt, rinehart and Winston, London, 1970 .
- 62- Pepiton, Albert, the detrmimants of distortion in social psychology, proshansky & seidenberg (Editors) Basic studies in social psychology, Holt, rinehart and Winston, London, 1970.
- 63- Pfister, Oskar, some application of psycho – Analysis, Gorge Allen & unvin LTD .London, 1923 .
- 64- Proshansky & seidenberg, Introduction of basic studies in social psychology, holt, rinehart and Winston, London, 1970 .
- 65- Red, Herbert, the meaning of Art, pelican Book, G.Britain, 1949.
- 66- Sidanius. J & Ekehammar, test of a biological model for Explaining sex difference in sociopolitical Ideology, the journal of psychology, 1982, p p 191 – 195.

